نهضتنا

خطاب السيدة استير ازهري مويال صاحبة مجلة العائلة المحجوبة

— في حفلة جمعية شمس البر —

ايها السيدات والسادة — انقول قضي الامر وجف القلم . وكتب على شرقنا التعس ان يكون آلة صماء في يد الغرب . يديره كما يشاء ويلعب به وبسكانه كما يريد ويتصرف فيه تصرف المالك بما تملك يده . فيقتسم اراضيه عابثاً بكل الحقوق الدولية . هازئاً بكل القرارات السلمية حتى متى عن لاي دولة منه توسيع نطاق اراضيها . هجمت علينا بخيلها ورجلها واكتسحت بلادنا . بعد ان تنشر في ارجائها الخراب والدمار . وتنظر الينا نظر المولى الى عبده والجبار القادر الى حيوان حقير امامه . اباحت له الايام اذلاله واحل له الدهر استعباده .

ام نقول . لنا عقول مفكرة . ورؤوس مدبرة واذرع قوية وايد عاملة . فما علينا الا ان نستعملها في السبل القويمة التي اختطتها هذه الشعوب المقتدرة لانفسهم قبلنا ليكون نصيبنا في هذا الوجود نصيب الاحياء العاقلة القابلة للفلاح العلمي والعملي . والقادرة ان تحمي ذمارها . وترد كيد اعدائها . وتدفع عنها طمع الطامعين فيها

أنقول قد ورثنا الذل عن اسلافنا . وسرى العجز في عروقنا مع الدم الذي يغذي ادمغتنا فحرمنا العزيمة الذاتية التي تدفع كلاً منا ليقاوم العثرات ويغالب الشدائد التي تعترضه دون الوصول الى اتقان الفن الذي يزاوله . او الحرفة التي يرتزق منها من غير ان يكون مدفوعاً اليها بحكم الضرورة او لارضاء اب او اخ . او بداعي الميل الى المجد الفارغ او بعامل حب الظهور او بما شاكل ذلك ام نقول كلا جبلنا من نفس الطينة التي جبلت منها هذه الشعوب الناجحة الذين انقادت العناصر لارادتهم وصيروا المادة الجامدة طوع بنانهم . واننا قد اعطينا نفس المواهب التي اكسبتهم رفعة وعظمة فما علينا الا ان نستعملها لنبرهن للملأ اجمع على استعدادنا للوصول الى ما لا يحد من الكمالات النفسية السامية التي تفتح لنا مغلقات اسرار الطبيعة وخصائص موادها ودقائق حوادث الارض واحوالها اليومية . وان ميلنا للكمال عظيم وشغفنا بالوصول اليه شديد . واننا نقدر الفنون الجميلة حق قدرها . ونعلي قيمة اربابها بيننا . واننا نفهم معنى الجمال الحقيقي ونسعى جهدنا لنتحلى به ونحلي اوطاننا العزيزة بجماليه التي تفرح النفوس الشاعرة . وتبهج القلوب الحساسة . وتخلق الافكار العالية . والاراء الصائبة .

انتظر الى هؤلاء الاوربيين وهم محلقون في الجو وقد ملكوا اعنة الريح فتحتهم صفة الالوهية كما نظر اليونان القدماء الى هرقلهم ومن قفى على اثره بينهم فجعلوا حداً بين ضعفهم وقوة هؤلاء الابطال وبين عجزهم ومقدرة اولئك الجبابرة العظام فوضعوهم في مصاف الالهة ووهبوهم صفة الخلود . مع انهم بشر مائتون . فنيأس ونقنط ونقول . بهذا حكم الدهر ولا مرد لحكمه . وما الشعوب على الارض الا الكواكب في السماء . هذا عظيم متألق نوره هائل في الكبر . وذاك حقير ضئيل متناه في الصغر . كلا . ابليق بنا ان نخدر اعصابنا بمثل هذا المنوم . ولنا عزائم شديدة . ورؤوس مفكرة لو سيرت بحسب الهامانها وعملت بما توحيه الينا لزعزعت الجبال من اساساتها وصيرت البحار صعيداً جرزاً اي يبست نباتاً

ان بلادنا ان انحطت . وموارد ثروتها ان شحت . واهاليها ان ارغموا على هجرتها . فالذنب ذنب كل واحد منا وكل منا مسؤول عما يصيبها من الخراب . وما ينتاب سكانها من المحن ودواعي الاضمحلال . ولا عتب في ذلك على الاقدار . وهي قد وهبتنا بلاداً يضرب المثل بصفاء سمائها . وطيب هوائها . وجمال موقعها . وخصب تربتها

انظروا الى الجنس الاصفر وما كان يوصف به من البلاهة والبلادة وصغر العقل . هل وقفت اليابان عند هذا الاعتقاد . وطأطأت الهام صاغرة تحت تأثير ذلك الحكم الذي استحقته اسلافها بسبب كسلهم وتهاملهم وجهلهم . الم تروا كيف انهم هبوا يداً واحدة وصاروا في سبيل العلم التيرة التي جعلتهم يضاهون اعظم دول الارض عظمة ومجداً

ام هل استسلمت البلاد الالمانية لعوامل تفرقتها وظلت متباينة في لهجاتها اللغوية وفي مصالحها السياسية وفي امارتها المتباعدة ام وحدت مصالحها كما وحدت لغاتها بان استصفت من بينها تلك التي وضع فيها شيلر وجيتي منظوماتهما البليغة وجعلتها لغة البلاد باجمعها هازئة بالقديم ساخرة به . انظروا الى اولئك الفلاحين منهم الذين قدموا بلادنا منذ العشرات من السنين واستعمروا في مدينتي حيفا ويافا بقاعاً فاحلة صيروها بشغلهم ونشاطهم واتقادهم جنات خضراء تسر الناظر وتشرح الخاطر لاقوا فيها عيشاً هنيئاً ورزقاً طيباً بينما فلاحها الوطني يفترش الارض ويلتحف السماء لفقره . افلا نهتف عندما نرى هذا الفلاح الالماني يحسن الفلاحة والتجارة والحدادة وكل عمل يتوقف عليه رفاهية منزله وراحة زوجته واولاده ان بين اصابع هذا الرجل كنوزاً لا يفنى وان لمثله ملكوت الارض افلا يشتد عجبنا حين نرى ان فلانة منهم التي هيأت لابنتها الجهلة مهراً مهماً (دوطة) تضعها في مدرسة المطبخ مدة سنتين بعد ان تم دروسها في جامعات برلين وان اعياها الامر تضعها سيف بيت احد

الوجهاء لتتعلم فيه شغل المنزل وادارة البيوت . اجل سادتي اذا رأيتم المانيا عظيمة بجنديتها . عظيمة بتجارتها عظيمة بصناعتها . واسعة بمستعمراتها فهي مدينة بذلك لاحقر فلاح من سكانها الذي يهتف بانشودة « دوتشلاند او براللبس » اي المانيا فوق الكل من خط الاستواء الى قطبي الارض

من كان يظن ان فرنسا تقدر ان تدفع لعدوتها بعد تلك الحرب الضروس سنة ٧٠ خمسة مليارات فرنك بهذه السرعة . وتعود لزعامة البشرية وقيادة حركة الفكر بين ابنائها في العلوم والفنون والصناعة حتى كانت الاولى في اتقان فن الطيران . انها برجال مثل باستور ورو وهايم وهيكو و كوري وغيرهم قد نالت مجداً وسؤدداً لا يفنى على ممر الدهور

بل انظروا الى البلاد الاسوجية التي كاد المسكر يقضي عليها لو لم تبادر فتخلق لها العاباً رياضية مسلية . وتعليماً ابتدائياً مناسباً اعاد لها شبابها ووهبها نشاطاً جديداً وصحة متينة

بقي علينا بعد ان علمنا ذلك ان نرمي نظرة اجمالية في احوال بلادنا علنا نعرف بها المبلغ الذي وصلنا اليه من التمدن العصري الذي اتخذ له المال اساساً وركناً فنقول

ان من ينظر الى الامور نظراً سطحياً يجد اننا قطعنا في سبيل العمران شوطاً بعيداً . وبلغنا منه شأواً قصياً . كيف لا وقد سكنا القصور الشاهقة وتزيينا بالازياء الباريسية الجميلة . ودرسنا اللغات الاوروبية . ولنا جرائد ومجلات تكاد تنقل اخبارنا الى احقر قرية من قرانا ولنا المصارف والمتاجر والمعامل الخ ولكن ايمثل هذه المظاهر تعظم الشعوب وتسود الممالك ؟

سادتي . اذا خلت اخلاقنا على ما هي عليه الان من احتقار الاعمال البدوية والتشبث بحب المجد الفارغ وحب الظهور عبثاً نحاول الصعود وميما علونا نظل بالحضيض لاصقين والا فما بال ابنائنا تتهافت على درس الطب والصيدلة وتترك الصناعة جانباً نافرة من كور الحداد ونيرانه ومنشار النجار ونشارته . متباعدة عن الزراعة التي توتيهم رزقاً حلالاً طيباً راساً من الله . دون ان تلجئهم الى تملق زيد ومداجاة عمر افلا يذوب القلب حزناً وحسرة عندما نجد نفراً بيننا من بنات الافرنج اللواتي لم تعتد انامليهن الا الضرب على البيانو واثارة القلوب بالحانها الشجية قد اخذن في درس فن الزراعة لشغفهن به في حين لا يلاقي هذا الفن من ابنائنا على شدة حاجتنا اليه الا الاهمال والترك . واراضينا الزراعية بحمد الله واسعة وانهارنا غزيرة فلو اعطيت شيئاً من العناية لفاضت على البلاد ينابيع الثروة وزادت اسباب اليسر وعم الرخاء والا فما نفع القصور التي شيدت من بيع حقل كانت محاصيله تقوم

بنفقات العائلة . وما نفع المعامل اذا كانت قاصرة على حل الشرنقة وسحب خيطها . وما نفع الازياء الحديثة اذا كان لابسها نظير الخياط والطبيب من التجار والصيارف الذين يعلنون افلاسهم عندما يجدون خزائنهم ملأى بالنضار مفعمة بالاصفر الرنان فيستحلون لانفسهم مال اليتيم والارملة او يضرمون النيران في مخازنهم لقبض المبالغ المضمونة لها

اما جرائدنا فاغلبها بحمد الله لا تهتم الا بالثوائه والسخافات ولا تظهر بلاغة اصحابها الا متى اخذوا بالشتائم . والا فما نفعها اذا لم يكن لاصحابها اخلاص متين وشجاعة ادبية مكينة تحملهم على احقاق الحق واذهاق الباطل كيف لا وهي لسان حال الشعب وحامي حماه . ورافع لوائه ومدرسته الثانية . فيها يتعلم حوادث الدهر وعبر الايام . فاذا لم تقم مقام الاستاذ الحكيم الذي يهذب النفوس ويثقف العقول . ومقام الجراح الماهر الذي لا يتأخر عن استعمال مبضعه ولو آلم مريضه . ولم تجعل الحرية والمساواة والاخاء شعاراً لها ساء مصيرها وادت الى الشقاق والتخاذل بينما نحن في اشد الحاجة الى ما يؤلف القلوب ويجمعها تحت لواء العدل حتى اذا ما رأت من الحكام اعوجاجاً او زيغاناً عن الحق اما لعدم كفاءتهم للمناصب التي يشغلونها او لكونهم قد باعوا ذممهم بمال سحت يقبضونه شهروا بهم وسفهوا احكامهم فيرغمونهم على ان يسلكوا سبل الرشاد او يعتزلوا القضاء

اما من العار ان يشغلوا قراءهم مدة شهرين عن ابهما افضل القبعة ام الطربوش حينما كانت ايطاليا تحشد الجيوش وتهيء الاساطيل وترسل الهبات تترى الى طرابلس الغرب شراء لمودة سكانها عليهم بمالئونها على خيانة اوطانهم ويسلمونها لها غنيمة باردة

وماذا اقول في متاجرنا التي تزيد وارداتها على صادراتها ولا تكسبنا الا عمالتها . انها اذا بقيت على هذه الحال كانت اضرارها جسيمة وتهددنا الفقر من كل صوب . لاننا اذا بعنا الرطل الواحد من بضائع الخام مثلاً بعشرة غروش ثم عدنا فاشترينا العشرة الدراهم منها بعد تهيئتها للاستعمال اليومي في اوروبا بنفس هذه القيمة نكون كمن يلحس المبرد . نعم ان المهاجرة قد سدت شيئاً من هذا النقص السنوي ونشرت في البلاد شيئاً من الرفاهية والرخاء ولكن كم يكون نفعها عميماً وخيرها مقيماً لو كان هذا المهاجر الكريم لا يبادر حين عودته الى الاوطان الى بناء قصر منيف يستغرق كل راسماله وربما استدان فوقه لاتمام بنيانه . فانه مهما باهى وفاخر به الاقران لا يفيد البلاد الا بتحسين هيئتها الخارجية لكنه لو عقل وعرف طريق الخير لنفسه ولوطنه لصب ماله في اسواقه تسهيلاً لمرافقه . او لاتحد مع اخوانه في الوطنية . واتفق معهم بصفاء نية وحسن طوية والف واياهم الشركات وقاموا

سوية بمشروعات تعيد لهم متى تسلمها اناس عرفوا بحسن السيرة والاستقامة الغرش عشرة او تزيد

كفانا يا قوم ما نحن فيه من حب الاثرة التي لا تكون عاقبتها الا الفشل والخيبة . كفانا انقساماً وشقاقاً وتحاسداً . ان المرء قليل بنفسه كثير باخوانه . انه متى انفرد وتمادى بحب ذاته ولم يعبد الا انانيته . ولم يرد الخير الا لشخصيته المقدسة ظل في مكانه جامداً لا يتقدم خطوة الى الامام . بينما يرى الشعوب حوله قد حولت بلدانها باتحاد بنيها الى فراديس ارضية فيها كل ما يحيي القلوب المائتة . ويثقف العقول الخاملة . ويهب علماً للجاهل . وفطنة للبليد الابله . فمن جنائن نباتية ومن حدائق حيوانية . ومن متاحف فنية . ومن اثار تاريخية . ومن تماثيل ومن انصاب رفعت احياء لذكر رجالهم العظام وكلها آيلة لترفع ذوق الانسان وتربطه بماضي قومه المجيد وافعالهم الحميدة التي اذا اقتدى بها وسار في سبلها فتحت امامه ابواب العظمة وكان ذريعة شرف ومجد للبلاد التي ينتمي اليها

كيف يمكننا ان نلبي نداء الوطن الذي يستجير بنا من الاهمال الذي رمته فيه عيشتنا الفردية وانشقاقاتنا العنصرية وعدم ثقة الواحد منا برفيقه . طالما نحن بحالتنا قانعون . وللاقدار مسلمون . افما كان من الواجب علينا ان نستبدل الزراعة القديمة وهي من اهم اركان ثروتنا بالزراعة الحديثة المبنية على العلم الصحيح وان نرسل المدرسة الى الفلاح الذي لا تمكنه ظروفه ان يذهب اليها . وان نبدل الاتعاب القديمة بالحديثة ونقدم له الاسمدة الكيمياوية التي تعطيه ٣٧ رطلاً لكل رطل من الغلة كما هو معدل محاصيلها في مستعمرات فلسطين الحديثة . افما علينا ونحن ابناء هذا العصر عصر الكهربائية والطيران الذي يهزأ بالابعاد ويسخر بالمسافات ان نتخذ من حب الوطن دافعاً قوياً يدفعنا الى تقديم مصلحته على كل مصلحة غيرها ونهب يداً واحدة وقلباً واحداً لجمع الاموال اللازمة لنقوم بشركات ومشاريع تبث اسهمها في طول البلاد وعرضها فتبعث الحياة في اراضينا الميتة وننشر في ارجائها الحركة بحيث لا نعود نرى فقراً واحداً منها لا تعمل فيه الايدي التي تديرها رؤوس مستنيرة بالعلوم العصرية الكافلة لها سبل النجاح . رؤوس افراد قضوا السنين الطوال وهم مكبون آناء الليل واطراف النهار على درس الفنون التي خلقوا لمزاولتها والتي ترشدهم لمعرفة مكامن كنوزنا . ومخابىء معادننا التي متى اخذنا بتعدينها وصهرها وتحويلها الى الات حربية وصناعية وزراعية ومنزلية افاضت على البلاد بالخير العميم وفتحت امام ابنائنا ميادين الاعمال الرابحة واسعة امامهم . فيقلعون عن ركوب الاهوال واقتحام مشاق الاغتراب طلباً للرزق

الواسع الذي يقتضيه التمدن العصري وتتطلبه المدنية الحالية

افما آن لنا ان نأخذ في نصب الجسور ورفع السدود والقناطر ومد الخلجان والقنوات بين انهارنا العظيمة التي تذهب مياهها بلا فائدة الى البحار . فتنظم الري وتسهل وسائط النقل بزيادة السكك الحديدية . افما حان لنا ان نشرع في تحسين الفرض والمراعي التي اعطتنا منها الطبيعة العدد الذي لو اعطي لروسيا او لالمانيا لزادت موارد ثروتهما الضعف مئة . والتي هجم على بعضها البدو واكل قسماً مهماً منها . الى متى كتب على تجار مدينة كياڤا التي هي فرضة للاراضي المقدسة ان ترمي اموالها بايديها الى البحار حين ارتفاع الانواء واشتداد الزوابع تخلصاً من عفونة الفاكهة التي تنتظر في جمارکها الشحن للبلاد القاصية . الى متى تظل مياه البحر الميت مثقلة بمعادنها . والاراضي المجاورة له لا تنبت سوى الاشواك والادغال حينما نجد الحصب فيها يحول اعشابها الى شجيرات باسقة

الى متى تظل البحار خالية من سفن نقل تجارية وطنية تحمل بضائعنا الى البلدان النائية دون ان تطوف بها السفن الغريبة كل المراحل والشطوط فيضيع على فاكهتنا الوقت ويتطرق اليها التعفن وترمى . بينما نجد السفن كالاطواد المشيدة في البحار لاصغر دولة بلقانية كانت بالامس ولاية من ولاياتنا مع ان فن سلك البحار بقدر ما هو مفيد لا يخلو من الجمال لمن يجد من نفسه كلفاً به وشغفاً بدرس اسراره فعليه اذا اردنا لوطننا خيراً . ولانفسنا نفعاً ان نبذل فيه شيئاً من العناية ولا نترك لدولة كبلغاريا مثلاً الاسبقية عليناڤيه

هل نعد قوماً ناهضين ونحن لا نادي عندنا يجمع ارباب الفن واصحاب الصنائع والحرف وقت العطلة للتباحث في شؤونهم الحيوية . والنظر فيما يؤول لنجاح مساعيهم وترقية اعمالهم وتبادل الرأي في احوالهم اليومية . على حين نجد ان احقر بلدة من بلاد الله الواسعة ملأى بالنوادي التي تختلف اليها رصفاء الفن الواحد مثلاً يومياً . فيؤلفون الجمعيات وينيبون عنهم اللجان العاملة التي تدافع عن مصالح اصغر فرد من ابنائهم اذ تقوم سداً في وجوه الحكام المرتشين وذوي النفوذ لديهم ان ارادوا به شراً

هل نعد قوماً ناهضين ونحن نهاب القوي الظالم ونتزلف اليه ونحتقر الضعيف ونتجنبه . فنملق ارباب الاموال ونخلق لهم محامد ومكارم لم يحلموا بها ولو كانت قلوبنا منطوية على كراهتهم واحتقارهم لشحهم وشدة حرصهم على الدنيا

هلموا بنا يا سادتي لنصلح ما فسد من اخلاقنا ولنضرب بالعوائد التي تحول دون نهضتنا الحقيقية عرض الحائط ولنتخذ لنا من العلم هادياً . والشغل قائداً . والاستقامة

مرشداً والحرية نوراً يتألق شعاعه في البيت والمدرسة والسوق . فتؤسس العائلة على قاعدة المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات . ولنجعلها شركة يعيش فيها الكل للواحد والواحد للكل . لا فندق اكل ومنام يلهو به الفرد الواحد ان اللهو يستأثر ما امكنه بملذاته وقت السرور ثم يرمي اثقاله على غيره ليقوم بمشاق حياته التي لم تفرش كل طرفها بالورود والرياحين بل هناك اشواك وادغال على كل فرد من اعضائها مد يده لاقتلاعها قبل ان يشعروا بوخزاتها . ونضع نصب اعيننا ذلك الواجب المقدس الذي يحتم علينا ان نتكر ذواتنا بازاء راحة بنينا وتحسين ذريتنا فنتير طريق الحياة لهم بعلم يستوفون اقساطه وعمل يتقنونه فينصبون بكليتهم عليهم عن ميل غريزي فيهم اليه . لا فرق في ذلك بين الذكور منهم والاناث وندربهم على الثبات والصبر والتجلد في الشدائد ونهبهم حرية الرأي والعمل شرط ان لا تمس حريتهم شعور الاخرين وصوالحهم ونعودهم الاستقلال الشخصي . ونفسح لهم ميادين الالعاب الرياضية واسعة بين احيائنا ليقوموا بالعاب وتمارين تقوي عضلاتهم وتعودهم النشاط والسرعة واصابة المرمى ورشاقة الحركة لتتروض اجسامهم وتتسدد خطواتهم ويكون لهم منها خير سلاح يلجئون اليه في الظروف العسرة التي يلاقونها في مستقبل الايام . وبذلك نعد اطفالنا ليكونوا رجال المستقبل ونساءه قد جعلوا حب الوطن ايماناً لهم ونجاحه وعظمته غرضهم ومحجتهم . حتى اذا ما اخذت اراضيهم تفيض لهم لبناً وعسلاً ومشروعاتهم تمطر عليهم سحائب المال تفرغت نوابغهم لاتقان الفنون التي خلقوا لمزاولتها دون ان يعيقهم عن ذلك مجرد البحث عن خبز الغد فلا يعود شاعرنا يجيد النظم ليستجدي ولا يخترع الموسيقي عندنا لحناً يتزلف به للاغنياء والعظماء . بل يكون لكل نابغة عندنا من حبه وشغفه بفنه دافع قوي يدفعه لتوخي درجة الكمال فيه

فيقوم من بيننا العلماء والشعراء والموسيقيون والمغنون والمصورون والنقاشون والنحاتون والكتبة الافاضل ليتمموا النهضة الفنية التي قمنا بها على ما فينا الان من عسر وضنك اذ من يقدر ان ينكر التقدم الحسي الذي بدا في الشعر عندنا والغناء معاً . فان الشعر منذ امد غير بعيد بعد ان كان معظمه عبارة عن كلام موزون مقفى اصبح بفضل الشاعر العصري ميداناً واسعاً تتسابق فيه جياد المعاني الشائقة التي تثير الشجون وتطرب النفوس . وبعد ان كان مغنينا بليداً محباً لذاته باحثاً عمن يفتش له عن الحبيب . اصبح ينظر الى حبيبه بعين الكمال ويتشرف بالانتماء اليه ويقدم نفسه فداء عنه

فواها ليوم نجد فيه فتياتنا وفتياتنا يحسنون ايقاع الالحان العربية ويجيدون غناءها